التطور الدلالي وأشكاله في كتاب
مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني

م.م. خضر أكبر حسن كصيّر
كلية الإدارة والاقتصاد / جامعة كركوك

المُلَّخَصُ

هذا البحث هو محاولة للوقوف على ظاهرة التطور الدلالي بأشكاله الثلاثة – التي حدَّدها علماء اللغة المحدثون، التخصيص الدلالي، والتعميم الدلالي، والانتقال الدلالي – في كتاب مفردات ألفاظ القرآن للرَّاغب الأصفهاني (ت٤٢٥هـ) .

وقد بَيَّنَ البحث أنَّ الرَّاغب الأصفهاني وقف على تطور دلالات الألفاظ التي رصدها في أثناء كشفه عن دلالات الألفاظ ومعالجته لها، بل كان يقف عليها كثيراً فيُبَيِّنُ أصلها، ويتابع ما تؤول اللفظة إليه من تطور . مُبيّناً الشكل الذي تتخذه اللفظة في تطوّرها من تخصيصٍ، أو تعميمٍ، أو انتقال عن طريق المجاز وعلاقاته. وكان ذلك كلّه موافقاً مع الدرس اللغوي الحديث في نظرته إلى هذه الظاهرة .

وهذا ما لم يكن غريباً بالنسبة للقدماء، فقد عُرِفَ عنهم تَعَمُّقِهِمْ في بحث اللغة وتَوَخَّوا من أجل ذلك سبلاً مختلفة، ولاسيما في بحثهم عن المعنى، فقد دأبوا على البحث في المعنى ودراستها خدمة للقرآن الكريم، وأدركوا – في أثناء دراستهم للمعنى– بأنَّ الألفاظ في تطور دائم . وعليه يمكن القول بأنَّ هناك جذوراً وأصولاً للتطوّر الدلالي بكلِّ مظاهره في مصنَّفات القدماء، وهذا ما حاول هذا البحث التأكيد عليه من خلال رَصْدِ مظاهر التطور الدلالي وأشكاله في كتاب من كتب القدماء .

المقدمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلامُ على نبيِّهِ الأمين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين . أمَّا بعدُ :

إنَّ رَصْدَ ظاهرة التطوّر الدلالي في مُصنَّفات القدماء يَمْنَحُنا فرصةً للوقوف على مراحل تطوّر دلالة اللفظة وتاريخها التي ضاعت أغلبها في العربية، وهذا ليس غريباً؛ لأنَّ

التاريخ اللغويّ سِرٌّ غامضٌ يصعب الوقوف على خفاياه أو الربط بين مراحله أجمع، لذلك من الطبيعي أن تفقد حلقات كثيرة من سلسلة تطوّره .

ولكنَّ هذا لا يعفينا من البحث بما يتوفر لنا من آثار لمتابعة سلسلة هذا التطور، ورسم حدودٍ تَصَوّريةٍ، أو حتى وهمية لِما انقطع من حلقاتها مبنيةً على قوانين التطور وأسسها المستقرأة من اللغة نفسها .

وهذا ما يحاول البحث تأكيده، إذ إنَّ هذه الدراسة تحاول أن تُبَيِّنَ – كما سيأتي – بأنَّ هناك جذوراً وأصولاً للتطوّر الدلالي بكلِّ مظاهره في مصنَّفات القدماء، من خلال رَصْدِ مظاهر التطور الدلالي وأشكاله في كتاب من كتب القدماء، الذين دأبوا على البحث في المعنى ودراستها خدمة للقرآن الكريم؛ لأنَّ البحث في المعنى قديمٌ قِدَمَ اللغة نفسها فقد بحث فيه أصحاب اللغة، والفلاسفة، والمناطقة، وأصحاب الكلام، والفقهاء، والمؤرّخين، وغيرهم مِمَّن يتعاملون بالمفردات والتعبيرات لإيصال ما يريدونه إلى الآخرين .

فقد وقف الرَّاغب الأصفهاني (ت٤٢٥هـ) على تطور دلالات الألفاظ التي رصدها في أثناء كشفه عن دلالات الألفاظ ومعالجته لها، وكان يقف عليها كثيراً فيُبَيِّنُ أصلها، ويتابع ما تؤول اللفظة إليه من تطور . مُبيّناً الشكل الذي تتخذه اللفظة في تطوّرها من تخصيصٍ، أو تعميمٍ، أو انتقال عن طريق المجاز وعلاقاته. وكان ذلك كلّه موافقاً مع الدرس اللغوي الحديث في نظرته إلى هذه الظاهرة .

اللغة والتطور

إنَّ اللغة البشرية هي كالكائن الحي تطرأ عليها تغيّرات، مثلما تطرأ على الكائن الحي من حيث النشأة والنمو والتطوّر، ولها علاقة وطيدة بالمجتمع الإنساني، إذ تحيا فيه وتستمد قوتها منه ومن عرفه وتقاليده وطريقة حياة أفراده، وهي تنمو بنمو المجتمع فتعلو بعلوّه وتضعف بضعفه، وليست اللغة من عمل شخص واحد (١) ، بل هي حصيلة حياة في مجتمع يجد أفراده أنفسهم مجبرين للتمسك بوسيلةٍ مهمةٍ للتخاطب والتعبير عمّا يجول في الفكر وتبادل وجهات النظر، واللغة شأنها شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى خاضعة للتطور في مستوياتها كافة، أصواتها وبنياتها وقواعدها ودلالاتها، وتطورها هذا لا يجري تبعاً للأهواء والمصادفات، أو وفقاً لإرادة الأفراد، بل يخضع في سيرها لقوانين جبرية ثابتة مطّردة

النتائج، وواضحة المعالم، ولا يستطيع أحد التحكّم في ذلك التطور، فليس في قدرة الأفراد أن يوقفوا تطور لغةٍ ما، أو يسيروا بها في سبيل غير التي خططتها لها قوانين التطور اللغوي(٢) . لذلك يُشبِّهُ الباحثون اللغةَ في تطورها على مرور الزمن بالكائن الحيِّ " لأنَّها تحيا على ألسنة المتكلمين بها، وهم من الأحياء، وهي لذلك تتطور وتتغيّر بفعل الزمن كما يتطور الكائن الحيّ ويتغيّر، وهي تخضع لما يخضع له الكائن الحيُّ في نشأته ونموّه وتطوره ، وهي ظاهرةٌ اجتماعيةٌ تحيا في أحضان المجتمع ، وتستمد كيانها منه ، ومن عاداته وتقاليده ، وسلوك أفراده ، كما أنها تتطور بتطور هذا المجتمع ، فترقى برقيِّهِ وتنحطُّ بانحطاطهِ "(٣) .

وقد لاحظ العلماء أنَّ تطور اللغة تتوزع بشكلٍ متفاوتٍ على أنظمةِ اللغةِ جميعِها ، إذ يبدأ بالنظام الصوتي وينتهي بالنظام الدلالي مروراً بالنظامين الصرفي والنحوي . وأنظمةُ اللغةِ كلِّها ليستْ على سواء في سرعةِ قبول هذا التطور ، إذ ثمة فرقٌ في سرعةِ الاستجابة للتطور بين هذه الأنظمة ، فأصوات الكلمات وأبنيتها ودلالاتها أسرعُ تطوراً من التراكيب . أمَّا التطورُ الدلالي فلا يعرفُ الاستقرار ، ولا يمكن رسم حدوده بسهولة؛ لأنَّها تخضعُ للظروفِ التي تتغيَّرُ من فردٍ إلى آخرَ ، إذ إنَّ " كلَّ متكلمٍ يكوِّنُ مفرداتهِ من أول حياته إلى آخرها بمداومتهِ على الاستعانة ممّن يحيطون به ، فالإنسان يزيد من مفرداته ، ولكنه ينقص منها أيضاً ، وتغيّر الكلمات في حركةٍ دائمةٍ من الدخول والخروج ، ولكنَّ الكلمات الجديدة لا تطرد القديمة دائماً، فالذهن يُروِّضُ نفسه على وجود المترادفات والمتماثلات ، ويوزعها على وجه العموم على استعمالاتٍ مختلفة؛ ذلك لأنَّ الحياةَ تشجع على تغيُّرِ المفردات؛ لأنَّها تضاعف الأسباب التي في الكلمات، فالعلاقات الاجتماعية والصناعات، والعدد المتنوعة تعمل على تغيُّرِ المفردات، وتقضي على الكلمات القديمة، أو تحوِّرُ معناها، وتتطلبُ خلقَ كلماتٍ جديدةٍ "(٤) .

ولا ريب أنَّ مثل هذا التطور، ولاسيما الدلالي منه حصل في اللغة العربية قديماً وحديثاً، كما حصل في غيرها من اللغات الأخرى، إذ إنَّ معاني الكلمات التي كانت مستعملة في عصر ما قبل الإسلام لم تظل نفسها بعد مجيء الإسلام، بل أصابها تغيّر أو تبدّل، قليل أو كثير، وهذا ما حصل في العصور الأخرى أيضاً؛ نتيجة لتطور الناس، والحاجة الملحّة إلى التطور وإضفاء صبغةٍ جديدة من المعاني على ألفاظ قديمة، توفيراً لحاجات الأمة

المتطورة، وغيرها من دوافع التطور الدلالي . وتوجد كلمات كثيرة أكَّد القدماء على نمو معانيها، واتّساع دلالتها؛ بسبب كثرة مداولتها بين الناس، وقد عقدوا لها أبواباً وفصولاً في مصنّفاتهم، إذ قال ابن فارس (ت٣٩٥هـ) في باب القول في أصول أسماء قيس عليها وأُلْحِقَ بها غيرها: " كان الأصمعي يقول: أصل (الوِرْدِ) إتيان الماء، ثم صار إتيان كلِّ شيءٍ وِرْداً . و(القَرَب) طَلَبُ الماء، ثم صار يقال ذلك لكلِّ طلبٍ، فيقال: هو يَقْرَبُ كذا، أي يطلبه، ولا تَقْرب كذا ... ومثل هذا كثير ... "(٥) . أما السيوطي (ت٩١١هـ) فقد عقد لهذه الظاهرة فصولاً بحسب أشكاله منها فصل " فيما وضع في الأصل خاصاً ثم استُعْمِلَ عاماً "(٦)، وفصل " فيما وضِعَ عاماً واستعمل خاصاً "(٧) . لكنَّ القدماء مع اعترافهم بهذا الثراء اللغوي نجدهم قد حصروه في مدّة معينة، ورفضوا أيَّ تغيّرٍ في الدلالة وجد بعد ذلك فقرر معظمهم رفض هذا التطور، وأنكروا الجديد في الدلالة، لا بدافع التعصّب للقديم ولكن بدافع الحرص على اللغة والحفاظ عليها من أجل تصفيتها لكيلا تفسد، ومراعاة لمبدأ السلامة اللغوية والفصاحة والبلاغة فيها، ولكن لم يكن لهذا الرفض أن يغيّر من التطلّع نحو التطور الدائم في معاني الكلمات(٨) .

أمَّا المحدثون فقد أكّدوا أنَّ التطوّر حاصلٌ في اللغة، وآخذوا على القدماء نظرتهم إلى اللغة في حصر التطور بزمان ومكان محددين، إذ يقول د. إبراهيم السامرائي في ذلك: " ومن نقص الأدوات عندنا لمعرفة اللغة معرفة علمية، أنَّ كتب اللغة لا تشير إلى اللفظة المفردة وطرائق استعمالها عبر العصور، وذلك أنَّ أصحابها مقلّدون في بحثهم اللغوي للفكرة الأولى التي قيّدت الفصاحة والبلاغة بحقبةٍ معينةٍ لا تتعداها إلى غيرها كما أسلفنا، وأصحابنا من المعنيين باللغة وبأساليب القول فيها بِدَعٌ بين أقرانهم من علماء اللغات الأخرى، فاللغوي الحديث يؤمن بالنظرة التاريخية، وبالتطور الذي تستدعيه عوامل التطور المختلفة "(٩) .

وقد أشار الراغب الأصفهاني (ت٤٢٥هـ) إلى أمثلة كثيرة للتطور الدلالي في أثناء كشفه عن دلالات الألفاظ التي وقف عليها، وكان يبيّن أصل تلك الألفاظ تارةً، ويُعَرِّجُ على ما آلت إليه من تغيّر تارةً أخرى، وقد حاول البحث ترتيب إشاراته تلك على وفق مظاهر التطور التي بينّها علم الدلالة الحديث .

مظاهر التطور الدلالي في كتاب مفردات ألفاظ القرآن :

١- تخصيص الدلالة (تضييق المعنى) :

هو الانتقال من دلالة اللفظ من معناه العام إلى معنى خاص ضيّق (١٠)، ويبدو أنَّ هذا النوع من التطور في اللغة هو " نتيجة إضافة بعض الملامح التمييزية للفظ، فكلّما زادت الملامح لشيء ما، قَلَّ عدد أفراده " (١١).

وفي اللغة العربية أمثلةٌ وشواهد كثيرة على التخصيص الدلالي، من ذلك مثلاً: كلمة (الحَجِّ) التي كانت تطلق على السفر إلى أيِّ مكان مطلقاً من دون تحديد، ثم تحوّلت إلى دلالةٍ خاصةٍ بالسَّفر إلى بيت الله الحرام . ومن أمثلته أيضاً: كلمة (الحراميّ) التي كانت تُستعمل للنسبة إلى الحرام، ثم اختصّتْ دلالتها على اللصِّ في بعض النصوص المروية في القرن السابع الهجري (١٢) .

وهذه الظاهرة شائعة في معظم اللغات، ففي الإنكليزية مثلاً كانت تُستعمل كلمة (meat) للدلالة على الطعام بكُلِّ أنواعه من دون تحديد، ثم خُصِّصَتْ بالدلالة على اللحم من بين أنواع الطعام (١٣) .

ومِمَّا أوقفنا عليه الرَّاغب من أمثلة تخصيص الدلالة ما قاله في لفظة (البهيمة)، التي وردتْ في قوله تعالى: (أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيْمَةُ الأنعام)(١٤)، فقد ذكر الرَّاغبُ أنَّ البهيمة: " هو ما لا نُطْقَ له، وذلك لِمَا في صوتِهِ من الإبهام "(١٥). وقال ابن منظور (ت٧١١هـ): " البهيمة هو كُلُّ ذات أربع قوائم من دواب البرِّ والماء، والجمع بهائم "(١٦) . وهذا بمجمله يعني أنَّ البهيمة هو كُلُّ حيوان له أربع قوائم، وسمِيَتْ بهيمة؛ لأنَّها تُصدِرُ أصواتاً غير مفهومة، ولكنَّ الرَّاغب أردف قائلاً: " لكن خُصَّ في التعارف بما عدا السِّباع والطير "(١٧). وهذا يعني أنَّ دلالة لفظة (البهيمة) قد انتقلت من الدلالة العامة التي كانت تعني كلّ حيوانٍ يُخرِجُ أصواتاً مبهمة، إلى دلالة جديدة أخّصُّ من الأولى في المعنى، لِتدلَّ على كُلِّ ذات أربعِ قوائم من دواب البرِّ والبحر، ولكن من دون السباع والطير .

ومِمَّا وقف عليه الرَّاغب في هذا الموضوع أيضاً لفظة (الخَرَاجِ)، في قوله تعالى: (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ)(١٨)، قال الرَّاغب: " فإضافته إلى الله تعالى تنبيه على أنَّه هو الذي أَلْزَمَهُ وأَوْجَبَهُ، والخَرْجُ أعَمُّ الخَرَاجِ ... والخَرَاجُ مُخْتَصٌّ في الغالب بالضريبة على الأرض "(١٩) . وقال ابن منظور: " الخَرْجُ والخَرَاجُ، واحد: وهو شيء يخرجه القوم في السنة من مالهم بقدر معلوم ... والخَرْجُ والخَرَاجُ: الأتاوة تؤخذ من أموال الناس "(٢٠) . وهذا يعني أنَّها كانت تُستعمل في الأصل للدلالة على ما يخرج من الأرض، ومن وكْرِ الحيوان، فيقال لذلك: خَرْجٌ وخَرَاج. إلاَّ أنَّ دلالتها تخصصت بالضريبة على الأرض فيما بعد .

ومن الألفاظ التي تحوّلت دلالتها إلى التخصيص، وأشار إليها الرَّاغب هي لفظة (الخِمَار) فقد ذكر أنَّ أصل الخَمْر: " ستر الشيء، ويقال لِمَا يستر به خِمَار"(٢١)، إلاَّ أنَّ الرَّاغب قد خَصَّ لفظة الخِمَارِ بما تُغَطِّي به المرأة رأسها، وقد بَيَّنَ ذلك في قوله: " لكِنَّ الخِمَارَ صار في التعارف اسماً لِمَا تُغَطِّي به المَرْأةُ رأسها، وجمعه خُمُر "(٢٢)، وقد أشار إلى ذلك في أثناء كشفه عن دلالة (خَمَرَ) في قوله تعالى: (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ)(٢٣) . وهذا يعني أنَّ لفظة (الخِمَار) كانت تُسْتَعْمَلُ في الأصل للدلالة على ما يستر الشيء بشكلٍ عامٍ، أيَّاً كان جنسه ونوعه، ومن ثَمَّ انتقلتْ دلالتها لتختصَّ بما تغطّي به المرأة رأسها . وقد أشار ابن منظور إلى هذه الدلالة الجديدة المتطورة في قوله: " الخِمَارُ: ما تُغَطِّي به المرأةُ رأسها، وجمعه: أَخْمِرَةٌ، وخُمْرٌ، وخُمُرٌ "(٢٤) .

وهناك أمثلةٌ أخرى لهذا النوع من التخصيص أشار إليها الرَّاغب في أثناء شرحه وتوضيحه لدلالات الألفاظ التي عرضها(٢٥) .

ومن الألفاظ التي اختصّت دلالتها بعد أن كانت عامة ما يُعرف بالألفاظ الإسلامية التي عبّرتْ عن مرحلةٍ جديدةٍ من التطور الدلالي؛ لأنَّ الدين الإسلامي قد أكسبها دلالات جديدة، وهذه الألفاظ هي " جميع المفردات التي كانت عامّةَ المدلول، ثمّ شاع استعمالها في الإسلام في معانٍ خاصّةٍ تتعلّق بالعقائد، أو الشعائر، أو النُظُم الدينية كالصلاة، والحجِّ، والصَّومِ، والإيمان، والكفر، والرُّكوع، والسجود "(٢٦) .

يقول ابن فارس (ت٣٩٥هـ) بصدد تلك الألفاظ: " فكان مِمَّا جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق. وأنَّ العرب إنَّما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان وهو التصديق. ثمّ زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سُمِّي المؤمن بالإطلاق مؤمناً. كذلك

الإسلام والمسلم، إنَّما عرفت منه إسلام الشيء، ثمّ جاء في الشَّرع من أوصافه ما جاء. وكذلك كانت لا تعرف من الكُفْرِ إلاَّ الغطاء والستر . فأمَّا المنافق فاسمٌ جاء به الإسلام لقومٍ أبْطَنوا غير ما أظهروه، وكان الأصل من نافقاء اليربوع . ولم يعرفوا في الفِسْقِ إلاَّ قولهم: (فَسَقَتِ الرُّطبة) إذا خرجت من قشرها، وجاء الشَّرع بأنَّ الفِسق الإفحاش في الخروج عن طاعة الله جلَّ ثناؤه "(٢٧) .

ومِمَّا وقف عنده الرَّاغب من هذه الألفاظ التي اكتسبت دلالات جديدة بسبب مجيء الإسلام، لفظة (الحَجِّ)، وقال فيها: " أصلُ الحَجِّ القصد للزيارة "(٢٨)، واستشهد على ذلك بقول الشاعر :

يَحُجُّونَ بَيْتَ الزِّبْرَقانِ المُعَصْفَرَا (٢٩)

ثمّ بَيّنَ ما آلتْ إليه لفظةُ الحَجِّ من تطوّر نحو التخصيص، إذ ذكر أنه " خُصَّ في تعارفِ الشَّرعِ بِقَصْدِ بيتِ اللهِ تعالى إقامةً للنُّسُكِ "(٣٠) . وقال ابن فارس في اللفظة نفسها: " وكُلُّ قَصْدٍ حَجٌّ، ثمّ اختصَّ بهذا الاسمِ القصد إلى البيت الحرام للنسك "(٣١).

وقد خَصَّصَ القرآن الكريم دلالة لفظة (الحَجِّ)، وأعطاها مفهوماً جديداً لم تكن اللفظة تحمله قبل مجيء الإسلام، وذلك في قوله تعالى: (وأَذِّنْ في النَّاسِ بِالحَجِّ يأتُوكَ رِجَالاً وَعَلى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)(٣٢) .

ومن ذلك أيضاً ما ذكره الرَّاغب في أثناء شرحه للفظة (الصوم)، فقال: " الصوم في الأصل: الإمساك عن الفِعْلِ مَطْعَماً كانَ، أو كلاماً، أو مَشْياً، ولذلك قِيْلَ للفَرسِ المُمْسِكِ عن السَّيرِ، أو العَلَفِ: صائمٌ. قال الشاعر:

خَيْلٌ صِيَامٌ وَأُخْرَى غَيْرُ صَائِمَةٍ(٣٣)

وقِيْلَ لِلرِّيحِ الرَّاكِدةِ: صَوْمٌ، ولاسْتِواءِ النهار: صَوْمٌ، تَصَوُّراً لِوُقُوفِ الشَّمْسِ في كَبِدِ السَّماء "(٣٤) . وقال ابن منظور في دلالة الصوم قبل أن تتخصّص: " الصَّومُ في اللغة الإمساك عن الشيء والترك له، وقيل للصائمِ صائمٌ لإمساكه عن المطعم والمشرب والمنكح، وقيل للصامت صائمٌ لإمساكه عن الكلام، وقيل للفَرَسِ صائمٌ لإمساكه عن العلف مع قيامه ... وصامتِ الرِّيحُ: ركدتْ ... وصام النهارُ صوماً: إذا اعتدل وقام قائم الظهيرة ... وصامتِ الشَّمسُ: استوتْ "(٣٥) .

وهذا يعني أنَّ دلالة لفظة (الصوم) كانت تعني في أصل وضعها: الإمساك والركود، فكلُّ شيءٍ سكنت حركته فقد صام . ومن ثمّ تخصَّصَتْ دلالتها بالانقطاع عن الأكل والشرب والجماع . وقد أشار الرَّاغب إلى دلالتها المتطورة بقوله: " والصَّومُ في الشَّرعِ: إمساكُ المُكلّف بالنِّيَةِ من الخَيْطِ الأبيض إلى الخَيْطِ الأسْوَدِ عن تناول الأطْيَبَيْنِ، والاسْتِمْنَاءِ، والاسْتِقَاءِ "(٣٦). وهذا يعني أنَّ دلالة لفظة (الصوم) قد خصّتْ في الشَّرع بالإمساك عن الأكل، والشرب، والجماع، في وقتٍ مخصوص، بعد أن كانت دلالتها في الأصل اللغوي تعني الإمساك عامة .

ومِمَّا ذكره الرَّاغب في هذا النوع من الألفاظ، لفظة (الأنفال)، فقد بَيَّنَ دلالتها بأنَّها: ما زَادَ على الواجِبِ، ومنها سُمِّيَ وَلَدُ الوَلَدِ نافلة(٣٧) . قال تعالى: (وَوَهَبْنَا لَهُ إسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً)(٣٨) . وذكر أنَّ واحد الأنفال نفل، وأصله العطاء، فقال في قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنْفَالِ)(٣٩). " وأصل ذلك من النَّفْلِ، أي: الزيادة على الواجب، ويقال له النافلةُ. قال تعالى: (وَمِنَ اللَّيلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ)(٤٠) ... ويقال: نَفَلْتُهُ كذا، أي: أعْطَيْتُهُ نَفَلاً "(٤١) . وقد أشار ابن منظور إلى إلى هذه المعاني بقوله: " النَّفْلُ والنَّافِلةُ: عطية التطوع من حيث لا يجب، ومنه نافلة الصَّلاة. والتنفّل: التطوّع "(٤٢) . وهذا يدلُّ على " أنَّ أصل النَّفْلِ في اللغة: الزيادة على المستحق، ومنه النافلة وهي التطوّع، ثم قيل لِما ينفله صاحب السريّة بعض أصحابه نفلاً، والجمع أنفال "(٤٣) .

فالنَّفْلُ والنَّافِلَةُ: ما كان زيادةً على الأصل، إلاَّ أنَّ لفظة (الأنفال) قد تحوَّلت من دلالتها العامة التي تعني كُلَّ زيادة وعطية إلى دلالة جديدة أخّصُّ في المعنى . وقد أشار إليها الرَّاغب بقوله : " والنَّفْلُ ما يحصل للإنسان قَبْلَ القِسمَةِ مِنْ جُملةِ الغَنِيمَةِ، وقِيلَ: هو ما يحصل للمسلمين بغير قتال "(٤٤). وهكذا نجد أنَّ لفظة الأنفال قد اكتسبت معنىً إسلاميّاً جديداً هو غير المعنى الأصلي لها، إذ أصبحتْ خاصةً بالغنائم التي يحصل عليها المسلمون في الحروب .

٢- تعميم الدلالة (توسيع المعنى) :

هو الانتقال بدلالة اللفظ من معناه الخاص إلى معنى عام واسع (٤٥)، وهو " أقلُّ شيوعاً في اللغات من تخصيصها، وأقلُّ أثراً في تطور الدلالات وتغيّرها، ويشبه تعميم

الدلالات ما نلحظه لدى الأطفال حين يطلقون اسم الشيء على كُلِّ ما يشبهه لأدنى ملابسة، أو مماثلة، وذلك لقصور محصولهم اللغوي، وقِلَّةِ تجاربهم مع الألفاظ "(٤٦) .

ومن أمثلة هذا النوع من التطور الدلالي الألفاظ التي كانت تستعمل بعموميتها لتنقل ما في مجموعها من معانٍ ودلالات إلى السامع، نحو كلمة (البأس) التي كانت تدلُّ على الحرب والقوّة والشجاعة في أصل وضعها، ثمّ صارت تطلق على كُلِّ شدّةٍ بما في ذلك المرض. وكلمة الورد التي كانت تدلُّ على نوع واحد من الورود وهو الورد الأحمر، ثم صارت تستعمل للدلالة على أنواع الزهور كافة(٤٧) .

أمَّا موقف الرَّاغب من هذا النوع من التطوّر الدلالي فقد وقف عنده، وأشار إليه في أثناء رصده للألفاظ التي كشف عن دلالتها، ومن أمثلته ما أورده بشأن لفظة (البَحْر)، في قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ البَحْرَيْنِ هَذا عَذْبٌ فُرَاتٌ وهَذا مِلْحٌ أُجَاجٌ وجَعَلَ بَينَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً)(٤٨) . فقد ذكر الرَّاغب أنَّ أصل البحر هو كُلُّ " مكانٍ واسعٍ جامعٍ للماء الكثير "(٤٩) . وقال ابن منظور في سبب تسميته بحراً: " إنَّما سُمِّيَ البحرُ بحراً لِسِعَتِهِ وانبساطه، ومنه قولهم: إنَّ فلاناً لَبَحْرٌ، أي واسعُ المعروف "(٥٠). وقد تتبّع الرَّاغب دلالة هذه اللفظة فقال: " وسمَّوا كُلَّ متوسِّعٍ في شيءٍ بَحْراً، حَتَّى قالوا: فَرَسٌ بَحْرٌ، باعتبار سعة جريه ... ولِلْمُتوسِّع فب عِلْمِهِ بَحْرٌ، وقد تَبَحَّرَ أي: تَوَسَّعَ في كذا، والتَبَحُّرُ في العِلم: التَوَسُّعُ "(٥١).

وهذا يعني أنَّ دلالة لفظة (البَحْرِ) في أصل وضعها كانت تدلُّ على المكان الواسع الجامع للماء الكثير على وجه الخصوص، ومن ثمّ عُمِّمَتْ دلالتها لِتدلَّ على كُلِّ مُتَوَسِّعٍ من دون تحديد .

ومن ذلك أيضاً ما ذكره إزاء دلالة لفظة (الجُنْد)، فقد قال الرَّاغب: " يقالُ للعَسْكَرِ الجُنْد اعتباراً بالغلظة، من الجَنَد، أي الأرض الغليظة التي فيها حجارة "(٥٢) . وهذا يعني أنَّ لفظة (الجُنْدِ) مأخوذة من (الجَنَدِ) باعتبار الغلظة فيها لِتدلَّ على العسكر. فالحجارة في الأرض هي غليظة وقوّية، وكذلك الجُنْد فلِأنَّهم متعاونون ومتكاتفون بعضهم مع بعض فذلك يكسبهم الشِّدَّة والغِلْظة، وقد أدرك الرَّاغب ذلك، فأردف قائلاً: " ثمّ يقال لِكُلِّ مجتمعٍ جُنْدٌ، نحو: (الأرواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ)(٥٣) "(٥٤) . وهكذا نجد أنَّ دلالة لفظة (الجند) انتقلت من دلالتها الخاصّة بالعسكر، إلى دلالتها العامّة التي تدلُّ على كُلِّ مجتمع .

ومِمَّا وقف عنده الرَّاغب من الألفاظ التي عُمِّمَتْ دلالتها لفظة (الخَيال)، إذ بَيَّنَ أصلها اللغوي بقوله: " الخَيَالُ: أصلُهُ الصُّورَةُ المُجَرَّدَةُ كالصُّورةِ المُتَصَوَّرَةِ في المنام، وفي المرآةِ وفي القلب بُعَيد غيبوبة المرئي "(٥٥)، ثمّ بَيَّنَ ما آلتْ إليه اللفظة من تطوّر نحو التعميم، فقال: " ثُمَّ تُسْتَعْمَلُ في صورةِ كُلِّ أمرٍ مُتَصَوَّرٍ، وفي كُلِّ شخصٍ دقيقٍ يجري مجرى الخيال "(٥٦) .

ومنه أيضاً لفظة (السِّجِلُ) التي وردتْ في قوله تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ)(٥٧). إذ عُمِّمَتْ دلالتها بعد أن كانت مخصوصةً بالحَجَرِ الَّذي يُكْتَبُ فيهِ، فقال الرَّاغبُ: " والسِّجِلُّ: قِيلَ حَجَرٌ كان يُكْتَبُ فِيهِ "(٥٨)، ثُمَّ بَيَّنَ تعميم دلالته بقوله: " ثُمَّ سُمِّيَ كُلُّ ما يُكْتَبُ فيه سِجِلّاً "(٥٩) .

ويتبيّنُ من ذلك أنَّ لفظة السِّجِلَ قد انتقلت دلالتها من دلالتها الخاصة والدالة على الحجر الذي يُكْتَبُ فيه، إلى دلالتها العامة المتمثلة بكُلِّ شيءٍ يُكْتَبُ فيهِ .

وهناك نوع آخر من التعميم الدلالي الَّذي وقف عليه الرَّاغب في أثناء كشفه عن دلالة الألفاظ، وهو التعميم الذي من باب التشبيه، من ذلك ما ذكره حول لفظة (الحَبْل) التي وردت في قوله تعالى: (في جِيْدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)(٦٠) . وقد بيَّن الرَّاغب دلالتها وما آلت إليه من تطوّر عن طريق التشبيه بقوله: " الحَبْلُ: معروفٌ ... وشُبِّهَ بِهِ من حيث الهيئة حَبْلُ الوريد، وحبلُ العاتق "(٦١). وهذا يعني أنَّ دلالة لفظة (الحَبْلِ) في أصل وضعها كانت تدلُّ على ذلك الشيء الذي يفتل من الليف وغيره لربط الأشياء وحزمها وشدِّها على وجه الخصوص، ثم انتقلت هذه الدلالة عن طريق التشبيه إلى معنىً عام، لِتَدُلَّ على أيِّ شيءٍ يشبه الحبل في الهيئة، نحو: حبل الوريد، وحبل العاتق، وغيره .

ومنه أيضاً ما أشار إليه الرَّاغب في لفظة (القِلادة)، فقال: " القِلادَةُ: المَفْتُولَةُ التي تُجْعَلُ في العُنُقِ مِنْ خَيْطٍ وفِضَّةٍ وغيرهما، وبِهَا شُبِّهَ كُلُّ ما يُتَطَوَّقُ، وكُلُّ ما يُحِيطُ بشيءٍ. يقالُ: تَقَلَّدَ سَيْفَهُ تَشْبِيهاً بالقِلادةِ، كقوله: تَوشَّحَ به تشبيهاً بالوِشاحِ، وقَلَّدْتُهُ سَيفاً يقالُ تارةً إذا وشَّحْتَهُ بِهِ، وتارةً إذا ضَرَبْتَ عُنُقَهُ. وقَلَّدْتُهُ عَمَلاً: أَلْزَمْتُهُ "(٦٢) .

أمَّا ما جاء عند الرَّاغب من أمثلة الانتقال من المعنى الماديّ في التخصيص إلى المعنى المُجَرَّدِ في التعميم، فإنَّهُ يكمن في جملةٍ من الألفاظ، من ذلك لفظة (الحديد)، فقد بَيَّنَ الرَّاغبُ أصلها اللغويّ بقوله: " الحديدُ: معروفٌ، قال عَزَّ وجَلَّ: (وأَنْزَلْنَا الحَدِيْدَ فِيْهِ

بَأسٌ شَدِيدٌ)(٦٣)، وَحَدَّدْتُ السِكِّينَ: رَقَّقْتُ حَدَّهُ، وأحددْتُهُ: جَعَلتُ لَهُ حَدَّاً "(٦٤) . ثُمَّ رَصَدَ تَعْمِيمَ دلالتها بقوله: " ثُمَّ يُقالُ لِكُلِّ ما دقَّ في نفسه من حيث الخِلقة، أو من حيث المعنى كالبصر والبصيرة حديد، فيقال: هو حديدُ النَّظر، وحديدُ الفهم، قال عزَّ وجل: (فَبَصَرُكَ اليَومَ حَدِيدٌ)(٦٥)، ويقال: لسانٌ حديد، نحو: لسانٌ صارمٌ، وماضٍ، وذلك إذا كان يؤثّرُ تأثير الحديد، قال تعالى: (سَلَقُوكُمْ بِألْسِنَةٍ حِدَادٍ)(٦٦) . ولِتصوُّرِ المنعِ سُمِّيَ البَوَّابُ حَدَّاداً، وقِيلَ: رَجُلٌ مَحْدُودٌ: مَمْنُوعٌ الرزقِ والحَظِّ "(٦٧) .

ويتبيّنُ من هذا أنَّ دلالة لفظة الحديد كانت تدلُّ في أصلها اللغويّ على المعدن الصلب المعروف على وجه الخصوص، ومن ثَمَّ انتقلت دلالتها إلى معنىً عام، فأصبحت تُستعمل وصفاً للدلالة على كُلِّ شيءٍ قويٍّ وحادٍّ سواء أكان ماديّاً أم مجرّداً، وهو انتقالٌ من تخصيصها في المعنى المادي إلى تعميمها في المعنى المجرّد .

ومنه أيضاً ما ذكره حول لفظة (السَّبَب)، التي وردتْ في قوله تعالى: (فَلْيَرْتَقُوا في الأسْبَابِ)(٦٨). قال الرَّاغب في بيان أصلها اللغويّ: " السَّبَبُ: الحَبْلُ الَّذي يُصْعَدُ بِهِ النَّخلُ، وجَمْعُهُ أسبابٌ "(٦٩). ثمَّ وقف على تطوّر دلالتها في قوله: " وَسُمِّيَ كُلُّ ما يُتَوَصَّلُ بِهِ إلى شيءٍ سَبَباً، قال تعالى: (وآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ سَبَباً، فَأَتْبَعَ سَبَبَاً)(٧٠)، ومعناه: أنَّ الله تعالى آتاهُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ مَعْرِفةً، وذَرِيعةً يَتَوَصَّلُ بِهِما، فأَتْبَعَ واحداً مِنْ تِلْكَ الأسْبابِ، وعلى ذلك قوله تعالى: (لَعَلِّي أبْلُغُ الأسْبَابَ، أسْبَابَ السَّمَوات)(٧١)، أي: لَعَلِّي أعْرِفُ الذَرائِعَ الأسبابَ الحادِثَة في السَّماء "(٧٢) .

وهكذا نجد أنَّ دلالة لفظة السبب كانت تدلُّ في أصلها اللغويّ على الحَبْلِ الذي يُصْعَدُ بهِ النَّخل على وجه الخصوص، ومن ثَمَّ انتقلت هذه الدلالة إلى دلالة عامّة، فأصبحت تدلُّ على كُلِّ ما يتوصّل به إلى شيءٍ، وهو انتقالٌ من المعنى الماديّ الخاص إلى المعنى المجرّد العام .

٣- تغيير مجال الدلالة (انتقال الدلالة) :

وهو تحويل دلالة اللفظ من مجالٍ إلى آخر على غير وجه الخصوص، أو العموم، ويتم ذلك عن طريق المجاز، أو الاستعارة، أو الكناية . ومن الكلمات التي تغيّرت دلالتها

عن طريق الانتقال لفظة (الشَنَب)، إذ كانت تعني في السابق: صفاء الأسنان، وجمال الثغر، ثم استعملت حديثاً بمعنى الشارب. وكذلك لفظة (الجمل) وانتقالها من الدلالة الحسية إلى الدلالة المجرّدة، إذ انتقلت من دلالتها على الإبل إلى الدلالة على الجمال في الأشياء المتعددة(٧٣) .

وقد حَدَّدَهُ فندريس بقوله: " يكون الانتقال عندما يتعادل المعنيان، أو إذا كانا لا يختلفان من جهة العموم والخصوص، كما في حالة انتقال الكلمة من المحل إلى الحال، أو من المسبب إلى السبب، أو من العلامة الدالة إلى الشيء المدلول عليه...، أو العكس... وانتقال المعنى يتضمّن طرائق شتّى يطلق عليها النحاة أسماء اصطلاحية: الاستعارة، إطلاق البعض على الكُلِّ، المجاز المرسل بوجه عام، المجاز المرسل بعلاقة الشبه، أو غيره عند عدم وجود اسمٍ للشيء المنقول إليه "(٧٤) .

وإنَّ انتقال اللفظ من مجال دلالته إلى مجالِ دلالةٍ أخرى؛ يكون نتيجة التشابه بين الدلالتين، أو لقربٍ بينهما، أو لعلاقةٍ أو مناسبةٍ واضحةٍ بين الدلالتين(٧٥) ، ويسلك هذا الشكل من أشكال التطوّر الدلالي طريقين بارزين هما :

أولاً: الاستعارة (المجاز الذي علاقته التشبيه) :

الاستعارة مصطلحٌ لغويٌّ يضمُّ بين دفتيه علاقتي التشبيه والاستعارة، وقد أطلق عليه بعض الباحثين مصطلح المشابهة، والفرق بين الاستعارة والتشبيه هو أنَّ الاستعارة تعبِّر عن المقصود بالتضمين لا بالتصريح(٧٦) .

ويتمُّ هذا الشكل من التطوّر عن طريق انتقال مجال الدلالة لعلاقة المشابهة بين المدلولين(٧٧). وهذا يعني أنَّ العلاقة بين المعنيين قائمةٌ على المشابهة، أي أنَّنا " حين نتحدّثُ عن عين الإبرة نكون قد استعملنا اللفظ الدالّ على عين الإنسان استعمالاً مجازياً. أمَّا الّذي سوّغَ لنا ذلك فهو شدَّة التشابه بين هذا العضو والثقب الذي ينفذ الخيط من خلاله "(٧٨) .

ومِمَّا وقف عنده الرَّاغب من أمثلة هذا النوع من التطوّر الدلالي لفظة (آسِن)، فقد بَيَّنَ أصلهُ بقوله: " أسِنَ الماءُ يأْسَنُ، وأسَنَ يأْسُنُ: إذا تَغَيَّرَ ريحهُ تغيّراً منكراً، وماءٌ آسِنٌ، قال تعالى: (مِنْ مَاءٍ غَيرِ آسِنٍ)(٧٩) " (٨٠) ، ثُمَّ ذكر تطوّر دلالتها عن طريق الانتقال،

فقال: " وَأَسِنَ الرَّجْلُ: مرض، مِنْ: أسِنَ الماء، إذا غُشي عليه ... وقيل: تأسَّنَ الرجلُ: إذا اعتلَّ تشبيهاً به "(٨١). أي تشبيهاً بالماء الآسن فانتقلت دلالتها عن طريق المشابهة من معناها الأصلي وهو الماء إذا تغيّر لونه، إلى دلالة جديدة مجرّدة لتدلَّ على المرض، أو الاعتلال .

ومن أمثلة ذلك أيضاً لفظة (الحَلْق) التي انتقلت دلالتها عن طريق التشبيه، وهذا ما ذكره الرَّاغب، فقال في بيان أصلها: " الحَلْقُ: العضو المعروف "(٨٢)، وهو " مساغ الطعام والشراب في المريء، والجمع القليل أحلاق ... والكثير حُلُوق وحُلُق "(٨٣).

وهذا يعني أنَّ أصل الحَلْقِ اسْتُعْمِلَ في المعنى المادي المحسوس الدَّال على العضو المعروف، إلاَّ أنَّ الرَّاغبَ أردف قائلاً: " والحَلَقَةُ سُمِّيَتْ تشبيهاً بالحَلْقِ في الاستدارة "(٨٤) . مِمَّا يدلُّ على أنَّ لفظة (الحَلْق) قد انتقلت دلالتها من أصل وضعها اللغوي عن طريق المجاز الذي علاقته التشبيه إلى دلالة جديدة، ووجه الشبه بينهما شكلها الدائري .

وأمَّا ما جاء عن طريق المشابهة بين المدلولين – من باب الاستعارة – فقد وقف عند الرَّاغب أيضاً في أثناء كشفه عن دلالات الألفاظ التي رصدها، من ذلك ما ذكره حول لفظة (الدَّرِّ) التي وردت في قوله تعالى: (يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيكُمْ مِدْراراً)(٨٥)، فقد ذكر أصل مِدْرار بقوله: " أصْلُهُ مِنَ الدَّرِّ والدَّرَّةِ، أي: اللَّبَن "(٨٦)، ثمَّ تتبّعَ تطوّر دلالته عن طريق الاستعارة، فقال: " ويُسْتَعَارُ ذلك لِلمَطَرِ استعارة أسماء البَعِيرِ وأوصافِهِ ..."(٨٧) .

وهذا يعني أنَّ الأصل في لفظة (الدَّرِّ) أن تدلَّ على اللَّبن سواء أكان في الضرغ أم في خارجه، وهو المعنى الحقيقي للفظة، ومن ثمَّ انتقلت إلى معنى آخر مجازيّ لتدلَّ على المطر عن طريق الاستعارة ومن خلال علاقة المشابهة التي بينهما .

ومن ذلك أيضاً لفظة (الوادي) الواردة في قوله تعالى: (إنَّكَ بِالوَادِي المُقَدَّسِ)(٨٨)، فقد ذكر الرَّاغبُ أصل لفظة الوادي بقوله: " أصلُ الوادي: الموضعُ الذي يَسِيلُ فِيهِ الماءُ، ومِنْهُ سُمِّيَ المَفْرَجُ بَينَ الجَبَلَينِ وادياً، وجمعه: أوْدِيَةُ)(٨٩)، وهذا ما ذكره ابن منظور أيضاً بقوله: " الوادي: كُلُّ مَفْرَجٍ بين الجبال والتلال والإكام، سُمِّيَ بذلك لِسيلانهِ، يكون مَسْلَكاً للسيل ومنفذاً ... والجمع الأودية "(٩٠) . من خلال ذلك نلحظ أنَّ أصل استعمال لفظة (الوادي) يدلُّ على الموضع الذي يسيل فيه الماء، وهو المعنى الحقيقي للفظة، إلاَّ أنَّ هذه الدلالة قد انتقلت عن طريق المجاز الذي علاقته التشبيه – من باب الاستعارة – إلى دلالة

أخرى جديدة ومستحدثة، وقد وضَّحها الرَّاغب بقوله: " ويُسْتَعَارُ الوادي للطَّريقةِ كالمَذْهَبِ والأُسْلُوبِ، فيُقال: فلانٌ في وادٍ غَيْرَ واديكَ، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيْمُونَ)(٩١)، فإنَّهُ يعني أساليب الكلام من المَدْحِ والهِجَاءِ والجَدَلِ والغَزَلِ "(٩٢) .

فالدلالة الجديدة للفظة الوادي هي الطريقة، وكان ذلك الانتقال عن طريق المشابهة، فوجه الشبه بينهما أنَّ الطريقة توجِّه صاحبها بحسب أسسها وقوانينها، مثلما يوّجه الوادي الماء بحسب التواآته وانحداراته .

ثانياً: المجاز المرسل (المجاز الذي علاقته غير التشبيه) :

ويتم هذا النوع من التطور عن طريق انتقال مجال الدلالة لعلاقة غير المشابهة بين المدلولين(٩٣) . أي إنَّ حَلَقَةَ الوصل بين المعنيين تكون من نوعٍ آخر غير المشابهة، وهو ما يُطلق عليه علاقات المجاز المرسل، كعلاقة السببية، والحالية، والمجاورة، والزمانية، والمكانية، والجزئية، والكلية، واعتبار ما كان وما سيكون، وغير ذلك من العلاقات . يقول ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ): " والعربُ تُسَمِّي الشيءَ باسم غيره إذا كان مجاوراً له، أو كان منه بسبب "(٩٤) . وهذه العلاقات كلُّها اجتهادية وتقوم على غرض المتكلِّم(٩٥) .

ومِمَّا ذكره الرَّاغب من أمثلة هذا الشكل لفظة (الأَسْو)، فقد ذكر: " الأَسْوُ: إصلاحُ الجرح، وأَصْلُهُ: إزالةُ الأسَى، نحو: كَرَبْتُ النَّخْلَ: أَزَلْتُ الكَرَبَ عنه، وقد أسوتُهُ آسوته أسْواً، والآسي: طبيب الجرح، وجمعه: إساءٌ، وأُساةٌ، وآسون "(٩٦) . وهذا يعني أنَّ أصل لفظة (الأسْو) هو إزالة الأسى، وهو المعنى الحقيقي لها في أصل الاستعمال، ومن ثَمَّ انتقلت دلالتها إلى معنىً مجازيّ لِتَدُلَّ على إصلاح الجرح، ويبدو عدم وجود أيَّ مشابهةٍ بين المدلولين، ولكنَّهما ارتبطا بعلاقةٍ من علاقات المجاز المرسل، ألا وهي الحال والمحل .

ومن أمثلة انتقال الدلالة عن طريق المجاز المرسل، ما أورده الرَّاغب بشأن لفظة (الرَّحْل) التي وردت في قوله تعالى: (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ في رِحَالِهِمْ)(٩٧) . فقال الرَّاغب: " الرَّحْلُ ما يُوْضَعُ على البَعِيْرِ لِلرُّكُوبِ، ثُمَّ يُعَبَّرُ بِهِ تارةً عن البَعِيرِ، وتارةً عَمَّا يُجْلَسُ عليه في المَنْزِل، وجمعه: رِحَالٌ "(٩٨) . وهذا يعني أنَّ أصْلَ لفظة (الرَّحْلِ) هو ما يوضعُ على البعير للرُّكوب وهو المعنى الحقيقي في أصل الاستعمال، ثم انتقلت دلالة تلك اللفظة عن طريق المجاز المرسل لتدلّ على البعير نفسه، وذلك لعلاقة المجاورة .

ومن تغيّر مجال الدلالة عن طريق المجاز ولعلاقة تسمية الشيءِ باسم ممتهنه (من المهنة)، قول الرَّاغب حول لفظة (الهَالِكِيّ)، فقد ذكر أنَّ " الهالِكِيّ: كان حَدَّاداً من قبيلة هالِكٍ، فَسُمِّيَ كلُّ حَدَّادٍ هالِكياً "[٩٩] . وهذا يعني أنَّ لفظة (هالِكيّ) تدلُّ على ذلك الشَّخص الذي عمل في الحدادة، وهو من قبيلة هالك، وهذا هو المعنى الحقيقي لتلك اللفظة، ثمَّ انتقلت تلك الدلالة إلى دلالةٍ مجازيّة، لِتدلَّ على كُلِّ واحدٍ يعمل في الحِدادة .

ومن أمثلة الانتقال عن طريق المجاز المرسل لفظة (الصَّلاة)، إذ ذكر الرَّاغب ذلك بقوله: " والصَّلاةُ التي هي العِبادةُ المَخْصُوصةِ، أصلُها: الدُّعاءُ، وسُمِّيَتْ هذه العِبَادَةُ بها كَتَسْمِيَةِ الشَيءِ بِاسمِ بعضِ ما يَتَضَمَّنُهُ "[١٠٠] . وهذا يعني أن لفظة (الصَّلاة) انتقلت من معناها الحقيقي الذي كان يستعمل بمعنى الدعاء، إلى معنىً مجازي لتدلَّ على العبادة المخصوصة، عن طريق إحدى علاقات المجاز وهي تسمية الكُلِّ باسم الجزء .

ومنه أيضاً لفظة (النبيذ)، فقد ذكر الرَّاغب أصله بقوله: " النبيذُ: التَّمْرُ والزَّبِيبُ المُلْقَى معَ المَاءِ في الإناء "[١٠١]، وهذا هو المعنى الحقيقي لها في أصل الاستعمال اللغوي، ثمَّ انتقلت دلالتها عن طريق المجاز إلى معنىً آخر، لتدلَّ على الشراب المخصوص، وتتبع الرَّاغب ذلك فقال: " ثمَّ صار اسْماً للشَّرابِ المَخْصُوص "[١٠٢]، وذلك لعلاقة المحلية بين المدلولين .

الخاتمة

إنَّ البحثَ في الدلالة يأتي في قمةِ البحوث اللغوية؛ لأنَّه يتعلّق بالمعنى، والمعنى هو غاية الدراسات اللغوية، فضلاً عن أنَّ البحث فيه صعبٌ، لاسيما إذا تعلّق الأمر بالتعمُّق في مسائله بين صفحات كتب التراث . وعلى الرَّغم من ذلك فقد حاول البحثُ من خلال استقرائه لواحد من الكتب المهمة والفريدة في التراث العربي، من الناحية الدلالية وبخاصة التطور الدلالي، أن يخلص إلى جملةٍ من النتائج، هي على الشكل التالي :

١- إنَّ علماء العربية القدماء قد أسهموا في أبحاث الدلالة بشكلٍ عام، وفي التطوّر الدلالي بشكلٍ خاص، وأغنوا هذا البحث بالنتائج التي أثبت البحث اللغوي الحديث صحّتها ودقّتها .

٢- إنَّ حركة التأليف في شرح معاني ألفاظ القرآن الكريم، وبيان دلالاته الدقيقة، الممثلة بكتب غريب القرآن، ومعاني القرآن – ومن ضمنها كتاب مفردات ألفاظ القرآن – قد أسهمت في إثراء الدرس الدلالي في العربية، لاسيما في العلاقات الدلالية بين الألفاظ، والتطور الدلالي .

٣- اهتمَّ الرَّاغبُ الأصفهاني برصْدِ أُصول الألفاظ وتطوّر دلالاتها، وقد كشف البحث – من خلال الأمثلة التي أوردها في أثناء شرحه للألفاظ – أنَّ مظاهر التطور الدلالي لدى الرَّاغب تتفق مع ما أقرّه علم اللغة الحديث، وهي :

أ- تخصيص الدلالة .
ب- تعميم الدلالة .
ت- انتقال الدلالة .

الهوامـــــــــش :

١. ينظر: لحن العامة والتطور اللغوي، د. رمضان عبد التواب ٣٠ .
٢. ينظر: اللغة والمجتمع، د. علي عبد الواحد وافي ٧٨ . والتطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، د. رمضان عبد التواب ٥ .
٣. التطور اللغوي ٥ .
٤. اللغة : فندريس ٢٤٧ .
٥. الصاحبي، أحمد بن فارس ٥٨ .
٦. المزهر في علوم العربية وأنواعها، السيوطي ١/ ٣٤٠ .
٧. المصدر نفسه ١/ ٣٤٣ .
٨. ينظر: لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، د. عبد العزيز مطر ٢٧٩ . والترادف في اللغة، حاكم مالك الزيادي ١٧ .
٩. التطور اللغوي التاريخي، د. إبراهيم السامرائي ٢٩ .
١٠. ينظر: علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر ٢٤٥ .
١١. المصدر نفسه ٢٤٦ .
١٢. ينظر: المصدر نفسه، والصفحة نفسها . وعلم الدلالة العربي (النظرية والتطبيق)، د. فايز الداية ٢٨١ .
١٣. ينظر: دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس ١٥٤ .

١٤. سورة المائدة : الآية ١ .

١٥. مفردات ألفاظ القرآن مادة (بهم) ١٤٩ .

١٦. لسان العرب، ابن منظور مادة (بهم) .

١٧. مفردات ألفاظ القرآن مادة (بهم) ١٤٩ .

١٨. سورة المؤمنين : الآية ٧٢ .

١٩. مفردات ألفاظ القرآن مادة (خرج) ١٧٨ .

٢٠. لسان العرب مادة (خرج) .

٢١. مفردات ألفاظ القرآن مادة (خمر) ٢٩٨ .

٢٢. المصدر نفسه، والصفحة نفسها .

٢٣. سورة النور : الآية ٣١ .

٢٤. لسان العرب مادة (خمر) .

٢٥. ينظر: المواد التالية في مفردات ألفاظ القرآن: (أهل، برح، جسد، جفن، جوب، خدن، دبَّ، روح، سفر، صوت ...) .

٢٦. التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، عودة خليل أبو عودة ٥٣ .

٢٧. الصاحبي ٤٥ .

٢٨. مفردات ألفاظ القرآن مادة (حَجّ) ٢١٨ .

٢٩. هذا عجز بيت للمخبّل السعدي، وصدره: (وأشْهَدُ من عونٍ حولاً كثيرةً) ، ينظر: عشرة شعراء مُقِلُّونَ، د. حاتم الضامن ٦١ . ومفردات ألفاظ القرآن مادة (حَجَّ) .

٣٠. مفردات ألفاظ القرآن مادة (حَجَّ) ٢١٨.

٣١. مقاييس اللغة، ابن فارس مادة (حَجَّ) .

٣٢. سورة الحجّ : الآية ٢٧ .

٣٣. هذا صَدْرُ بيت للنابغة الذبياني، وعَجْزُهُ: (تَحْتَ العجاجِ وأُخرى تَعْلِكُ اللُّجما). ينظر: ديوانه ١١٢ .

٣٤. مفردات ألفاظ القرآن مادة (صوم) ٥٠٠ .

٣٥. لسان العرب مادة (صوم) .

٣٦. مفردات ألفاظ القرآن مادة (صوم) ٥٠٠ .

٣٧. ينظر: مفردات ألفاظ القرآن مادة (نفل) ٨٢٠ .

٣٨. سورة الأنبياء : الآية ٧٢ .

٣٩. سورة الأنفال : الآية ١ .

٤٠. سورة الإسراء : الآية ٧٩ .

٤١. مفردات ألفاظ القرآن مادة (نفل) ٨٢٠ .

٤٢. لسان العرب مادة (نفل) .

٤٣. الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري ١٦٤ .

٤٤. مفردات ألفاظ القرآن مادة (نفل) ٨٢٠ .
٤٥. ينظر: دلالة الألفاظ، ١٥٤ . وعلم الدلالة، د. أحمد مختار عمر ٢٤٣.
٤٦. ينظر: دلالة الألفاظ ١٥٤ – ١٥٥ .
٤٧. ينظر: دلالة الألفاظ ١٥٥ . علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، د. محمود السعران ٢٨٥ . وعلم الدلالة والمعجم العربي، د. عبد القادر أبو شريفة، وآخرين ٦٦ .
٤٨. سورة الفرقان : الآية ٥٣ .
٤٩. مفردات ألفاظ القرآن مادة (بحر) ١٠٨ .
٥٠. لسان العرب مادة (بحر) .
٥١. مفردات ألفاظ القرآن مادة (بحر) ١٠٩ .
٥٢. مفردات ألفاظ القرآن مادة (جند) ٢٠٧ .
٥٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني ٦ / ٢٦٣ .
٥٤. مفردات ألفاظ القرآن مادة (جند) ٢٠٧ .
٥٥. مفردات ألفاظ القرآن مادة (خيل) ٣٠٤ .
٥٦. المصدر نفسه، والصفحة نفسها .
٥٧. سورة الأنبياء : الآية ١٠٤ .
٥٨. مفردات ألفاظ القرآن مادة (سجل) ٣٩٨ .
٥٩. المصدر نفسه، والصفحة نفسها .
٦٠. سورة المسد : الآية ٥ .
٦١. مفردات ألفاظ القرآن مادة (حبل) ٢١٧ .
٦٢. مفردات ألفاظ القرآن مادة (قلد) ٦٨٢ .
٦٣. سورة الحديد : الآية ٢٥ .
٦٤. مفردات ألفاظ القرآن مادة (حدّ) ٢٢٢ .
٦٥. سورة ق : الآية ٢٢ .
٦٦. سورة الأحزاب : الآية ١٩ .
٦٧. مفردات ألفاظ القرآن مادة (حدّ) ٢٢٢ .
٦٨. سورة ص : الآية ١٠ .
٦٩. مفردات ألفاظ القرآن مادة (سبب) ٣٩١ .
٧٠. سور الكهف : الآيتان ٨٤ – ٨٥ .
٧١. سورة غافر : الآيتان ٣٦ – ٣٧ .
٧٢. مفردات ألفاظ القرآن مادة (سبب) ٣٩١ . وللمزيد من هذه الأمثلة ينظر المواد التالية: (بعل، بنى، ترك، ثمر، عضل، فصح) .
٧٣. ينظر: علم الدلالة والمعجم العربي ٦٩ .

٧٤. اللغة ٢٥٦ . وينظر: دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ١٨٣ . والتفكير اللساني في الحضارة العربية، د. عبد السلام المسدّي ١٨٨ .
٧٥. ينظر: الأضداد في اللغة العربية ، محمد حسين آل ياسين ٦٧ .
٧٦. ينظر: دور الكلمة في اللغة ١٨٣ .
٧٧. ينظر: الترادف في اللغة ٢٤ .
٧٨. دور الكلمة في اللغة ١٨٣ .
٧٩. سورة محمد : الآية ١٥ .
٨٠. مفردات ألفاظ القرآن مادة (أسن) ٧٦ .
٨١. المصدر نفسه، والصفحة نفسها .
٨٢. مفردات ألفاظ القرآن مادة (حلق) ٢٥٣ .
٨٣. لسان العرب مادة (حلق) .
٨٤. مفردات ألفاظ القرآن مادة (حلق) ٢٥٣ . وللمزيد ينظر المواد التالية: (أكل، بصل، حدب، عجز، قعد، لقح، يتم) .
٨٥. سورة نوح : الآية ١١ .
٨٦. مفردات ألفاظ القرآن مادة (درّ) ٣١٠ .
٨٧. المصدر نفسه، والصفحة نفسها .
٨٨. سورة طه : الآية ١٢ .
٨٩. مفردات ألفاظ القرآن مادة (ودي) ٨٦٢ .
٩٠. لسان العرب مادة (ودي) .
٩١. سورة الشعراء : الآية ٢٢٥ .
٩٢. مفردات ألفاظ القرآن مادة (ودي) ٨٦٢ . وللمزيد ينظر المواد التالية: (حرف، خوض، رتع، سبق، صدر، طلق، عضد، قتل، هضم) .
٩٣. ينظر: دور الكلمة في اللغة ١٨٨ .
٩٤. أدب الكاتب، ابن قتيبة ٢١ .
٩٥. ينظر: المجاز وأثره في الدرس اللغوي، د. محمد بدري عبد الجليل ٦٩ .
٩٦. مفردات ألفاظ القرآن مادة (أسا) ٧٧ .
٩٧. سورة يوسف : الآية ٦٢ .
٩٨. مفردات ألفاظ القرآن مادة (رحل) ٣٤٧ .
٩٩. المصدر نفسه، مادة (هلك) ٨٤٤ .
١٠٠. المصدر نفسه، مادة (صلّى) ٤٩١ .
١٠١. المصدر نفسه، مادة (نبذ) ٧٨٨ .
١٠٢. المصدر نفسه، والصفحة نفسها .

المصادر والمراجع

١. الأضداد في اللغة العربية ، محمد حسين آل ياسين، ط١، مطبعة المعارف، بغداد، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م .
٢. أدب الكاتب ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، تحقيق: ماكس كوينت، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٠م، أعادت طبعه بالأوفسيت، دار صادر، بيروت، ١٣٨٧هـ – ١٨٦٧م .
٣. الترادف في اللغة ، حاكم مالك الزيادي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، ١٩٨٠م .
٤. التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن ، عودة خليل أبو عودة، ط١، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٥م .
٥. التطور اللغوي التاريخي ، د. إبراهيم السامرائي، مكتب البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٦م .
٦. التطور اللغوي (مظاهره وقوانينه وعلله) : د. رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط١ ، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م .
٧. التفكير اللساني في الحضارة العربية ، د. عبد السلام المسدّي، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨١م .
٨. دلالة الألفاظ ، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٦٣م .
٩. دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان، ترجمة وتعليق: د. كمال محمد بشر، ط١٠، مكتبة الشباب، ١٩٨٦م .
١٠. ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ١٣٧٩هـ – ١٩٦٠م .
١١. الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها ، أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٧م .
١٢. عشرة شعراء مُقِلُّونَ ، د. حاتم الضامن، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، ١٤١١هـ – ١٩٨٣م .
١٣. علم الدلالة ، د. أحمد مختار عمر ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٤٠٢هـ–١٩٨٥م .
١٤. علم الدلالة العربي (النظرية والتطبيق) دراسة بلاغية ، د. فايز الداية، دار الفكر، ط١، ١٩٨٥م .
١٥. علم الدلالة والمعجم العربي، د. عبد القادر أبو شريفة، وحسين لافي، ود. داود غطاشة، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط١، ١٩٨٩م .
١٦. علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي) ، د. محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت، (د – ت) .

١٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، دار المعرفة، بيروت، (د – ت) .

١٨. الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، ط٤، دار الآفاق الجديدة، بيرووت، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .

١٩. لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، د. عبد العزيز مطر، المكتبة العربية، القاهرة، (د–ط)، ١٣٨٦هـ–١٩٦٦م .

٢٠. لحن العامة والتطور اللغوي ، د. رمضان عبد التواب، القاهرة، ط١، ١٩٦٧م .

٢١. لسان العرب ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١هـ)، طبعة بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، (د – ت) .

٢٢. اللغة : جوزيف فندريس ، تعريب : عبد الحميد الدواخلي ، ومحمد القصاص ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠م .

٢٣. اللغة والمجتمع : د. علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ، ١٩٤٦م .

٢٤. المجاز وأثره في الدرس اللغوي ، د. محمد بدري عبد الجليل، دار الجامعات المصرية، ١٩٧٥م .

٢٥. المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وآخرين، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ١٤٢٨هـ–٢٠٠٧م .

٢٦. مفردات ألفاظ القرآن، الرَّاغب الأصفهاني (ت٤٢٥هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط٣، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م .

٢٧. مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .

((Abstract))

"The semantic development and its forms in 'Mufradat Alfadh Al-Quran' by Al-Raghib Al-Asfahani"

This study aims to trace the semantic development in "The semantic development and its forms in 'Mufradat Alfadh Al-Quran' by Al-Raghib Al-Asfahani" in its three forms: specification, generalization and transference.

This study explains how Al-Raghib Al-Asfahani described the semantic development of expressions which he observed while surveying their origins and meanings and denoting their forms, among the three, which the expressions take.

The study of this phenomenon was common among linguists, who were known for language research and who discovered that the meaning of expressions were in constant change. They placed all their discoveries at the service of the Quran.